بين المدرسة والمجتمع

لقد عرفنا المدرسة صغاراً أنها ذلك البناء ذو الجدر السميكة والنوافذ الحديدية والبوابة التى تفتح وتقفل بميعاد ، وأنها ذلك المكان الذى يسيطر عليه نفر من المعلمين فى أيديهم العصى وعلى ألسنتهم العلم ، وتتعاون الأداتان لكى تخلقا من التلميذ الجاهل « . . . فتى يقرأ الكتاب ، ويخط الخطاب ، ويميز بين الطرح والضرب فى الحساب ! . . »

وما أذكر أننى رأيت مدرسة فى الكويت بجدرها وقضبانها وبواباتها إلا أحسست أنها مكان يجدر بالطفل أن يخشى ولوجه ، وإلا تواردت على ذكريات طفولتى عند ما كنت أنتظر ساعة الخروج من المدرسة فى أول دقيقة أدخلها ، فما كان فى محيطها ما يغرى طفلا بأن يهجر جو الحرية الفسيح واللعب الحر والانطلاق على السجية ، إلى أن يسجن نفسه بين جدران أربعة إلى مكتب قاس ، صامتاً كالصنم ، خاضعاً لما يؤمر به ، متقبلا ما يحشر به دماغه حتى يغدو الصورة المطلوبة من أستاذه الفريد ! . .

وما تذكرت جو المدرسة القديمة إلا تذكرت قصة خرافية عن أرض يعيش فيها خليط من الأقزام والعمالقة . والأقزام فى المدرسة هم التلاميذ والعمالقه هم الأساتذة بطبيعة الحال . وما أذكر قط أن قزما طمح إلى أن ينمو حتى يغدو عملاقا فى يوم من الأيام ! . فان أول البدائيات أن يدخل التلميذ المدرسة وهو أقل علماً من المدرس ، حتى يستطيع الاستفادة من حياته الدراسية على الاقل . . ولحفظ النسبة بين العمالقة والاقزام لا بد أن يغادر التلميذ المدرسة بعد مجهود دراسى مضن وهو أقل علماً من الاستاذ كذلك . . ولم يكن هناك من يفكر فى التخصص ، إذ لم تكن أبواب المعرفة أو أبواب المادة تسمح بهذه الحماقة ، لهذا فان التلميذ يخرج بما ناله من محصول علمى إلى الحياة ليصبح عضواً عاملا فى المجتمع ! .

وإننى لأسائل نفسى اليوم : ترى لو ألجأتنا الحاجة والضرورة إلى أن يشغل هؤلاء الاقزام مكان أولئك الاساتذة ليخرجوا لنا أقزاما أعظم تواضعاً وأدق أجساماً وأقصر قامات . . ترى إلى أى غاية تصير أجيالنا المقبلة ، وإلى أى نهاية تسير المدرسة بما فيها من ناشئة وبما تحويه وتختزنه من علم ومعرفة ؟ ! .

كنت أحضر بالأمس مناقشة عامة حول « المدرسة والمجتمع » وكان أحد المتكلمين يرى أن المدرسة ليست إلا صورة مصغرة للمجتمع الذى تنتسب إليه ، وأن من أغراضها أن تعكس الحياة الاجتماعية بصورة مختزلة ، حتى يشعر أبناؤها وهم فيها بأنهم فى مجتمعهم العادى ، وإلا شعروا عند خروجهم من المدرسة إلى المجتمع الواسع بفارق قد لا يستطيعون معه تكييف حياتهم بحيث لا يعدون شواذاً غير مرغوب فيهم . . ولكن خصمه يرى غير هذا الرأى ، إذ يعتقد أن هذه الفكرة ربما يسلم بصحتها إذا كان المجتمع مثالياً تام النضج بالغ الكمال ، بحيث نقتنع بصلاحية استمراره لأننا لا نطمع فى مجتمع أرقى منه وأكمل . أما وإن مجتمعا قط لم يبلغ حتى فى أعظم الأمم مدنية وحضارة مبلغ الكمال ، فإن أول واجبات المدرسة أن تعمل على تخريج جيل أصلح للحياة وبذلك تكون العامل الأول فى التطور المنشود للمجتمع ؛ هذا التطور الذى لن يتم إلا إذا شعر المدرسون قبل غيرهم بأنهم يجب أن يخرجوا من أبنائهم شباناً أقدر منهم على مواجهة الحياة وأكثر منهم استعداداً للإفادة منها .

كانت خواطرى وأنا أستمع إلى الخطيبين تتجه فى كل لحظة إلى أحوالنا بالكويت . . إلى مدرستنا القديمة والحديثة . . إلى جوها المادى والمعنوى . . إلى رسالتها وأهدافها . . إلى مافيها ومن فيها . . فما أنكرت من مدرستنا القديمة أنها شذت عن قواعد الاجتماع ، فانها عكست فى حجراتها كما عكست فى رءوس أبنائها فكرة المجتمع السائدة . وأفلحت إلى أقصى حد طلبه منها المجتمع فى محو الأمية بين الأطفال الذين أخذهم آباؤهم طائعين أو كارهين إليها . وكان الجو السائد فى المدرسة هو الجو السائد فى المجتمع ، وكان أبرز ما فيها هو قيمة السن كمؤهل للعلم . وكانت هذه النظرية مبنية على أساس اجتماعى محلى واضح الأسباب ؛

إذ أنه ما دامت الثقافة المدرسية العميقة تكاد تكون معدومة فان الخبرة والممارسة هى المؤهل للمعرفة ، وكلما مد الله فى عمر إنسان اضطر لأن يخبر الحياة فيزداد حكمة وعقلا ومقدرة على الإدراك السليم ! . وقد يبعث الله عبقرياً لا ينتظر إلى أن يطعن فى السن لكى ينال الحكمة ورجاحة العقل ، أو يخلق معتوهاً لاتزيده الأيام إلا جهلا ، ولكن هذين من شواذ القاعدة العامة ، وحديثنا عن غالبية المجتمع التى كثيراً ما ابتلعت فى جوفها العبقرى والمعتوه على السواء ، وإن كان العبقرى ليس سهل الهضم ولا مستساغ المذاق ! . .

والنظريات أو التقاليد الاجتماعية التى تنشأ وتتركز ببطء ، تذوى وتفنى ببطء كذلك . وقد بدأت تذوى نظرية ارتباط المعرفة بالسن فى مجتمعنا ، ولكنها لم تختف بعد وقد لا ينتظر لها أن تختفى إلا بعد سنين كثيرة. وعندما تفنى ستفنى معهـــا نظرية وراثة الكفاءات ، وسيغدو الشخص بعمله وإنتاجه لا بأبيه أو سنه . .

إننا إذا كنا نطمع فى تغيير سريع مضمون ناجح فى حياتنا الاجتماعية ، فإن علينا أن نبدأ بمدارسنا فنجعل منها مثلا للمجتمع الراقى الذى نسمو إليه : أساتذة متحابون يدركون خطر الرسالة التى يضطلعون بها ، لهم حظ من العلم ومن صفات العلماء ، يحدبون على الناشئة التى وكل إليهم رعايتها ، ويدركون أن أول واجباتهم أن يهيئوا المجال الذى تنمو فيـــه مدارك تلاميذهم ومواهبهم وشخصياتهم . وأن يتعهدوا فيهم ملكة النقد حتى لا يغدو صوراً ممسوخة أو متقنة منهم بل أفراداً قادرين ببصيرتهم على أن يتميزوا صالحهم ويشقوا طريقهم ، ويختاروا لأنفسهم الأسس التى يبنون عليها فلسفتهم ونظرتهم إلى الحياة . .

إننا نطمع فى تطور اجتماعى يدفعنا خطوات سريعة إلى الأمام ، وسيجنى صغار اليوم ثمار هذا التطور غداً ، إذا استطاعت مدارسنا أن تكون فى ذاتها مجتمعاً لايسوده نظام العالقة والأقزام وإذا استطاعت أن تخرج شباباً أحرار الفكر أقوياء الشخصية لايتحرجون من النقد ولا يخشون توجيهه .

أما إذا عجزنا عن تهيئة المدرسة اللازمة والمدرس الكفء ، ولم نستطع تحقيق الانسجام السامى فى مجال التعليم ، فإننا سنعيش فى مجتمع فيه ما لايحصى من الأقزام ومن عمالقة أشبه بالأقزام . . .

لندن — **عبد العزيز حسين**

أنواع الكرام

ورد فى مأثور القول :

« اليد العليا خير من اليد السفلى » ومع هذا كله لايزال العطاء من شيم الأخلاق ، ولكن من الناس من يعطون قليلا من الكثير الذى عندهم — وهم يعطونه لأجل الشهرة ورغبتهم الخفية فى الشهرة الباطلة تضيع الفـــائدة من عطاياهم .

ومنهم من يملكون قليلا ويعطونه بأسره .

ومنهم المؤمنون بالحياة وبسخاء الحياة هؤلاء لاتفرغ صناديقهم ، وخزائنهم ممتلئة أبداً .

ومن الناس من يعطون بفرح . وفرحهم مكافأة لهم .

ومنهم من يعطون بألم وألمهم صقل لهم .

وهناك الذين يعطون ولايعرفون معنى للألم فى عطائهم ولا يتطلبون فرحا ولا يرغبون فى إذاعة فضائلهم ، هؤلاء يعطون ما عندهم كما يعطى الريحان عبيره العطر فى ذلك الوادى .

« جبران »